متطلبات الحياة وجاذبيّتها، ومن الأمد الطويل للاستبداد في الحكم والسلطة...جعل كثيراً من المثقفين يفقدون أدوارهم، فبعضهم ارتمى في أحضان السلطة متملّقاً ومبايعاً، والبعض الآخر انسحب من الصراع ومارس لغة البياض، أو لغة قزح حسب المقامات والحسابات، وقد كانت الثورات التأسيساتيّة مناسبة لفضح مثل هذه اللّغات، وكيف أنَّ مجموعة من المثقفين والكتّاب كانوا يمجّدون حسني مبارك أيام حكمه، وبمجرّد ما عزلته الجماهير انتقلوا مباشرة إلى تمجيد ثورة ٢٥ يناير/ كانون الثاني.[١٧] وهذا الوضع لا يقتصر على البلدان العربيّة، بقدر ما هو ظاهرة عالميّة، فالمثقفون التابعون لمختلف السلط التجاريّة والسياسيّة والإعلاميّة السائدة التي يقلقها استقلال الحقل الثقافي، لكونه مبدأ وجود السلطة الثقافيّة النقديّة للمثقفين (باعتبارها أحد أشكال السلطة المضادّة في المجتمع الحديث)، هم الذين اعتاد الإيطاليّون على تسميتهم بالمحميين، وسمّاهم أفلاطون بباعة حرفة الرأي.[١٨]

لكن بالمقابل، كان هناك فريق من المثقفين عارض الاستبداد وانتقده في العلن وبمختلف الطرق، ولعلّه الفريق الذي عانى من الاضطهاد والتهميش والإقصاء، بل لعلّه الفريق الذي عبّر عن رفضه للاستبداد، ورفض الاستسلام أو الانخراط في جوقة الاستبداد، رغم منطق العصا والجزرة التي يسلكها الاستبداد، من أجل تأمين «إجماع» حول إنجازاته وبطولاته...إنَّ هؤلاء المثقفين لم تهمّهم يوماً المراكز السياسيّة والاجتماعيّة المرموقة ولا الانضواء في تكتّلات وأحلاف وهميّة، ولم تصنعهم أبواق الإعلام، لم يكرّسوا يوماً صورة الطاغية، ولم يسهموا في نحت تماثيل الحكّام في الشوارع كفزّاعات لكلّ مواطن تهفو نفسه إلى الحريّة والعدالة.[١٩]

تأسيساً على ما سبق، فإنَّ قلّة من المثقفين العضويين بقيت ملازمة ومشجّعة لخطاب الثورة، خاصّة على مستوى أهدافها ومراميها الحداثيّة والديمقراطيّة، لكنّها قلّة وجدت نفسها متخلّفة عن الركب، لارتباطها مرجعيّاً بخطاب المثقف الكلاسيكي، خاصّة مع زحف وسائل الاتصال الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي وعوالم الإنترنت الرقميّة المتشعّبة والتفاعليّة وفق سرعة كبيرة، تحتفي بالآني والهُنا احتفاء يتكسّر معه كلّ توجيه كلاسيكي وتقليدي، أتى على مفاهيم الزعامة والقيادة والأبويّة، وهو ما تشير إليه الباحثة المصريّة شيرين أبو النجا بالمثقف الانتقالي.

وأمام بروز مفهوم المثقف الرقمي، والمدوّن الرقمي، وميتا ثوري، تلوح في الأفق المفاهيمي، كما يدلي بذلك أحمد شرّاك، مفاهيم جديدة مؤسّسة لعلم اجتماع الثقافة والمثقفين، ولعلّنا نجد في مفهوم المثقف التأسيساتي، وهو ما يعادل عند الباحثة شيرين أبو النجا المثقف الانتقالي، ما يفي بالغرض الإبستمولوجي الباني لواقع ثقافي جديد، لعلّ واقع «الربيع العربي» أحد تجلّياته المفهوميّة. يقول أحمد شرّاك عن هذا المثقف، الذي يعتبر في الآن نفسه، مثقفاً مشاكساً ناقداً منخرطاً في الواقعي والافتراضي على حدّ سواء: «إنَّ المثقف التأسيساتي، على العكس تماماً، فهو يقبل الجوار والحوار بجانب المثقف الأصلي والرسولي والمثقف المتشاكس، لأنَّ النقد عنوانه، إلّا أنَّه من المؤكّد أنَّ المثقف التأسيساتي دحر أطروحة «نهاية المثقف»، لأنَّ كلّ الدفوعات والمرافعات التي قدّمتها هذه الأطروحة هناك قد انهارت أمام عنفوان هذا المثقف وانخراطه النموذجي في الشأن العام، هذا المثقف الشاب الذي عادة ما كانت كثير من الكتابات هنا تشيع وجوده، وتضعه في خانة اللّامبالي أو اللّامسيس، أو الهارب أبداً إلى الملذّات والشهوات. أمّا المثقف الأصلي، فقد تلقّى الرسالة واستوعبها وأدرك أنَّه ينبغي أن يجدّد أدواته وينخرط في العصر، وأنَّ البرج العاجي الذي شيّده حول دوره وحول نفسه انطلاقاً من امتلاكه للخيرات الرمزيّة، وأنَّه هو القادر وحده على التأطير والتنظير، وبدونه لن تتبدّل الأحوال، فقد تلقى رسالة مفادها أنَّ روزنامة المثقف ينبغي النظر إليها من زاوية الدور والفعل، لا من زاوية المعرفة والخيرات الرمزيّة، وأنَّ المثقف هو الذي يدافع عن قضيّة، سواء بالانخراط الفعلي أو بالانخراط النقدي الدائم، وهنا تتبخّر أحكام القيمة والمواصفات الجاهزة، بكون المثقف لا يحمل هذا التوصيف إلّا إذا كان له تراكم وخيرات رمزيّة عميقة. إنَّ المثقف قد يكون خبيراً وقد يكون مدوّناً، وقد يكون شفويّاً أيضاً، ولكن له قدرات على التأطير والتأثير، وهذا ما نجح فيه المثقف التأسيساتي الذي لا يزعم البطولة ولا الكاريزما ولا الفردانيّة، مثقف جمعي وجامع للمثقف الأصلي والمثقف النقدي وكلّ أطياف المجتمع.[٢٠]

١٧- أحمد شرّاك، سوسيولوجيا الربيع العربي، مرجع سبق ذكره، ص٢٠٧

١٨- عبد السلام حيمر، في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين، من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٤

١٩- إكرام عبدي، هؤلاء هم أيضاً صنعوا الثورة، جريدة أخبار اليوم، العدد ٥٤٢، الخميس ٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠١١

٢٠- أحمد شرّاك، سوسيولوجيا الربيع العربي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٤